المبحث الرابع

عيسى ومكائد اليهود

لم يكن اليهود ليُخلصوا دينهم لله خُلوصاً كاملاً كما يجب، بل دأبوا على مقاومة أنبيائهم ومخالفة ماجاؤوا به من شرائع وأحكامٍ من الله جلَّ وعلا.

نجدهم قد ناصبوا ابن مريم العداء؛ لأنَّه مَّمن جاءهم بما لا تهوى أنفسهم من دعوة التَّوحيد وترك ما لم يأمر به الله والرُّجوع إلى شرع الله الحقيقي الَّذي دعا إليه موسى عليه السلام والأنبياء من بعده.

فقد جاءهم عيسى بالآيات البيِّنات على صدق رسالته من ربَّه ممَّا لا يدع مجالاً للشَّك، فكذَّبوه، وكفروا به، وبما جاء به. قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢ رَبَّنَآ ءَامَنَّا

بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[1] [آل عمران: ٥٢-٥٤].

فلمَّا أدرك عليه السلام إدراكًا قويًا جَرى مَجرى المشاهدة بأنَّ القوم يأتمرون به ليقتلوه وقد أصرُّوا على كفرهم وعتوِّهم ومكابرتهم، ولن تجدي معهم وسيلةٌ من وسائل اللِّين والدَّعوة الحسنة، أخذ يبحث بين قومه الَّذين آمنوا به عن أنصار ينصرونه في دعوته ويدفعون عنه كيد الكائدين، فاستجاب له الحواريون. ومكر به أولئك الكفرة من اليهود بأن احتالوا على أن يقتلوه في خفية، ولكنَّ الله جلَّ وعلا مكر بهم وأخزاهم وردَّ كيدهم في نحورهم عندما رفع نبيَّه إليه وألقى شبهه على آخر فأخذوه وصلبوه وقتلوه، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٥-٥٧].

---

(١) والمكر قال في اللِّسان مادة (مكر): قال أهل العلم بالتَّأويل: المكر من الله تعالى جزاء سُمِّيَ باسم المُجَازَى، كما قال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ ﴾ [الشورى: ٤٠] فالثَّانية ليست بسيِّئة في الحقيقة ولكنَّها سمِّيت سيِّئة لازدواج الكلام. قال ابن الأثير: مكر الله إيقاع بلائه بأعدائه دون أوليائه.

ففي هذه الآيـــات الكريمات بيان واضحٌ لمـــا آل إليه أمر المسيح عليه السلام في الدُّنيا، فقد وعَدَهُ الله بوعودٍ أربعةٍ:-

الوعـــد الأوَّل: أن يتوفَّاه إليه، حيث لا يقتل مصلوبًا ولا غير مصلـــوبٍ ولا يموت مقتولًا ولا مغـــدورًا به، بعد أن يتمَّ دعوة بني إسرائيل إلى عبادة الله وحده.

الوعد الثَّاني: تطهيره من المشركين الكافرين، من أن يلحقوا به أدنى أذًى حســـيٍّ أو معنويٍّ، فإنَّهم لم يتمكَّنوا من الوصول إليه مطلقًا عندما همُّوا بقتله.

الوعد الثَّالث: رفعه حيًّا من الأرض بجسمه وروحه معًا إلى السَّماء في موضعٍ كريمٍ لا يستطيع أحدٌ أن يمسَّه بسوءٍ.

الوعـــد الرَّابع: أن يجعل أتباعه من المؤمنين برســـالته فوق الَّذين كفروا من قومه بالحجَّة واليقين إلى يوم القيامة.

وهذا صـــادقٌ على أتباعـــه الحقيقيين الَّذين آمنـــوا به نبيًّا واتَّبعـــوا ما جاء به من عند ربِّه. فلمَّا جاء محمَّدٌ ﷺ بالإســـلام بعد ذلك آمنوا به واتَّبعوه، فكان لهم أجران. كما صحَّ ذلك عن الرَّسول ﷺ (١).

(١) راجع صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾.

وهؤلاء أعلى مرتبة، بل مراتب من الَّذين كفروا بعيسى، سواء كانوا يهوداً أو نصارى من الَّذين بدَّلوا دينهم، وحرَّفوه إلى يوم القيامة، حيث يعود الجميع، ويجتمع البرُّ والفاجر إلى الله الحقِّ ليحكم بينهم بالعدل فيما كانوا فيه يختلفون.

ثمَّ بعد ذلك يفترقون إلى فريقين: مؤمن وكافر، ولكلٍّ جزاء من جنس عمله.

فالكافر له عذابٌ شديدٌ غليظٌ في الدُّنيا بأن يسلِّط الله عليه القلق والخوف من المستقبل على حياته وحياة من يعول، وبالشَّحناء والحسد واليأس والقنوط من الرَّحمة، وغير ذلك من الأمور الَّتي يتعذَّب بها الكافر والمشرك.

وأمَّا في الآخرة فمآل الكافر والمشرك جهنَّم ومصيره إليها لا محالة، وساءت مصيراً، ولن يجد له هناك من ينصره.

وأمَّا الَّذين آمنوا بالله وحده، وعزَّروا رسله، ونصروهم، وعملوا الصَّالحات، وما أمروا به من أنواع الطَّاعات، فسيوفيهم الله أجورهم، الحسنةُ بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرة.

نهاية المسيح عليه السلام على الأرض:

ونمضي مع القرآن الكريم للكشف عن مكائد اليهود ضدَّ نبيِّهم المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٧-١٩٥].

تُبيِّن هذه الآيات الكريمات أنّ اليهود قد أجمعوا أمرهم بتصميم وصدقٍ على التَّخلص من المسيح عليه السلام رسول الله.

ويزعمون في كتبهم أنَّهم قاموا بالوشاية به عند ملكهم الرُّوماني، متَّهمين إيَّاه، بمحاولة السَّطو على الملْك، وإخضاع غيره من الملوك لسلطانه. فحدَّدوا مكانه هو وبعض أتباعه من المؤمنين في بيت أحدهم، وهمُّوا بالهجوم على المكان وقد فعلوا، فزعموا أنَّهم أخذوه وصلبوه وقتلوه. ولكنّ القرآن الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه جاء فيه قول الله تعالى مبطلاً زعمهم ومكذبهم: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

فنفى عنه القتل والصَّلب، وبيَّن أنَّ المأخوذ الَّذي قتل وصلب ليس هو المسيح عليه السلام: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٥٧]، لم يجزموا بينهم برأي حول حقيقة المصلوب، أكان هو المسيح أم غيره؟ لأنَّهم قالوا: إذا كان هو المسيح فأين الَّذي دلَّنا عليه، وإذا كان هو الدّليل، فأين المسيح؟.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٧ – ١٥٨] من بينهم لم يمسُّوه بأذًى.

وجاء في الصَّحيحين أنَّ المسيح عليه السلام سينزل في آخر الزَّمان إلى الأرض، ويحكم بالعدل، ويقتل الدَّجال، ويكسر الصَّليب، ويقتل الخترير، ويضع الجزية؛ لأنَّ الدِّين سيكون حينذاك الإسلام في الأرض بأسرها، فلا جزية على ذميٍّ، ولا يقبل إلا الإسلام.

روى الشَّيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً يقتل الدَّجال، ويقتل الخنزير، ويكسر الصَّليب، ويضع الجزية، ويفيض المال، وتكون السَّجدة واحدةً لربِّ العالمين**»[1].

(١) راجع صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب نزول عيسى ابن مريم.

وأخبر الله عزَّ وجلَّ أنَّ ما من كتابيٍّ إلا ويؤمن قبل أن يموت، إيماناً راسخاً بالمسيح ابن مريم رسول الله وعبده حيّاً في السَّماء، الَّذي سيكون يوم القيامة -بعد أن ينزل إلى الأرض، ويموت فيها، ويبعثه الله يوم ينفخ في الصُور مع الخلائق- شاهداً على بني إسرائيل بما كانوا يفعلونه معه من كُفْرٍ وإلحاد ومُخالفة ما جاء به من ربِّه من شرائع وأحكام وقد أخبر الله تعالى أنَّ كلَّ نبيٍّ سيكون يوم القيامة شاهداً على أمَّته، قال تعالى مخاطباً نبيَّ الهدى ﷺ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١].

الاختلاف حول رفع المسيح ابن مريم عليه السلام ونزوله آخر الزَّمان:

هناك إجماعٌ بين المسلمين على أنَّ المسيح ابن مريم لم يمت مقتولاً ولا مصلوباً بفعل اليهود أو أي فئةٍ أخرى من النَّاس، بل لم يزل حيّاً رفعه الله إليه، وذلك استناداً إلى ظاهر القرآن الكريم.

ولكنَّهم اختلفوا في نهايته على الأرض كيف كانت؟ وماذا سيكون من شأنه آخر الزَّمان؟ فمن قائلٍ: إنَّ الله رفعه إليه حيّاً بجسمه وروحه، وسينزل كذلك آخر الزَّمان عَلَماً للسَّاعة. يقتل